الفكر العروبي الرسالي في علاقته بالآخر: الكرد نموذجاً

حسين عمر

المشهد السياسي العالمي وتراجُع المركزية

« . لا يوحي المشهدُ السياسي العالمي باضمحلال هويات بعينها. أكثرَ من هذا، تتصدّر هذا المَشْهدَ مسألةُ الحفاظ على الهويات بمختلف تجلّياتها... وذلك إثر الانكفاء الذي راح يَشْهده، في بداية الألفية الثالثة، مفهومُ الدولة المركزية الصلبة الذي أسَّس له اليعاقبةُ. ويُعتَقد أنّ القرن الحادي والعشرين سيكون قرنَ تحطيم الدول ـ الأمم، وتحوُّلِها المؤسسي والبنيوي، وأقلمَتِها وأثْنَنَتِها، والاعترافِ بالتمايزات، بما فيها التمايزاتُ الطائفية والفئوية.»[1]

من هنا لا تكمن المسألة في اضمحلال هوية أو أخرى، وإنّما في طبيعة التحديدات التي تُطلَق على الهويات، وفي صيغ العلاقات المستقبلية بين تلك الهويات كبديلٍ من العلاقات الراهنة التي يعتريها الكثيرُ من العسف واللاندّية.

المفارقة أنّ هذا السياق التفتيتي لبروز الهويات وتطوُّرها يتوازى مع سياق آخرَ معاكسٍ يتمثل في تصاعد وتيرة المركزَة الاقتصادية، وبروز هيمنة سياسية وعسكرية أُحادية على المستوى العالمي كما تتوازى حركةُ تطوير الصيغ الدستورية والقانونية لأوضاع المكوِّنات الثقافية والاجتماعية والكيانات التي تعيش داخل الدول القومية المعصرنة (مثل الكاناك في فرنسا والباسك في إسبانيا والكيبيك في كندا) مع حركة توحُّد حثيثة في إطار منظمات وتجمعات قارّية وإقليمية ودولية (الاتحاد الأوروبي نموذجًا). إذًا، فطبيعة العلاقة بين هذه المكوِّنات المحدَّدة بهويات متباينة هي التي تتعرض للتحول والتطور.

فالشعوب الأوروبية التي كانت تعيش في إمبراطوريات (مثل الشعوب النمساوية والهنغارية والجرمانية والروسية..) فَكَّكتْ هذه العلاقة، وأعادتْ صياغتَها تحت تأثير بروز الأفكار القومية واستحداثِ مفهوم الدولة ـ الأمة، وأقامت الدولَ المستقلة. وفي حين لم تَمنع الحروبُ والنزاعاتُ المديدةُ بين تلك الشعوب صياغةَ علاقةٍ وحدويةٍ حديثةٍ تأخذ الخصوصياتِ في الحسبان، وتتمثل في الاتحاد الأوروبي المتوسع، تتراجع المركزيةُ الصلبةُ للدولة الواحدة أمام التطوير الدستوري المستمر لأوضاع الكيانات المتمتعة بالخصوصية.

النخب العربية والأكراد

وفي منطقتنا أيضًا، ينبغي التصدي لمسألة العلاقة بين المكوِّنات القومية والثقافية والاجتماعية الموجودة فيها، وإزالةُ صيغة القومية المهيمِنة والقوميةِ المضطهَدة أولاً، ومن ثم بناءُ أطرٍ تنظِّم علاقاتٍ قائمةً على الاعتراف والاحترام والتفاعل المتبادل والمصالح المشتركة. لكنّ ذلك يعوِّقه عاملان اثنان: الطغيان السلطوي، والغلوّ القومي.

في ما يتصل بالعلاقة الكردية ـ العربية تحديدًا، يمكننا القول بأنّ الاستعمار في بداية القرن المنصرم قد «أورث» أجزاءً من الوطن الكردي لأجزاءٍ من الوطن العربي.[2] كما يمكننا القول بأنّ التعامل مع هذا المقسوم الاستعماري وكيفية إزالة نتائجه كان هو المحدِّدَ لنمط التعاطي العربي ـ الكردي، وكلٌّ فريقٍ من موقعه: العرب من موقعهم كقوميةٍ سائدة، والكرد كقومية مضطهَدة.

ومع ذلك فإنّه لا يُمْكن وضعُ العرب جميعًا في موقع واحد من المسألة الكردية. ولا يُمْكن الخلطُ بين القومية العربية كمفهوم سياسي وحضاري، والشوفينيةِ العربيةِ الداعية إلى محو الهويات الخاصة بالمكوِّنات الموجودة في الرقعة الجغرافية المحكومةِ عربيًا وإحلالِها في الهوية العروبية.

ففي حين تأتي أكثرُ المواقف عدائيةً وتشددًا حيال الكرد وقضيتهم من السلطات القامعة ودعاةِ العروبة الرسالية المعرقنة الداعيةِ إلى ابتلاع كلِّ المكوِّنات الواقعة بين شاطِئَي المحيط والخليج، إضافةً

١ ـ جوزيف ياكوب، ما **بعد الأقليات، بديل عن تكاثر الدول** (باريس دار أتوليه للنشر، ٢)، ص ١١ وهو كتاب باللغة الفرنسية، وقد قمنا بترجمته إلى العربية، وهو قيد الطبع (ح ع)

٢ ـ جوان آشتي، «الواقعي والموهوم في الرؤى العربية للكرد و'علاقة' هم العربية،» مجلة **الحوار**، العدد ٤٠، صيف ٢ ٢

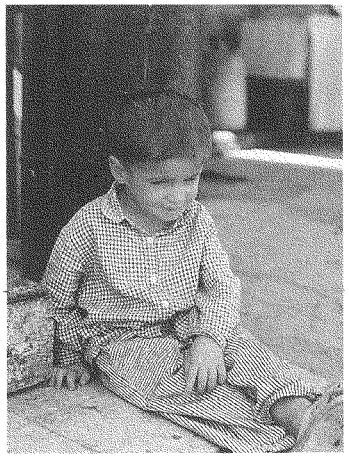

طفل من كردستان ـ العراق

إلى التيارات الأصولية التي لا ترى خارج «الأمة الإسلامية» انتماءً، تُبدي نخبٌ عربيةٌ تموقعتْ خارج المواقع السابقة وتبنّتْ قيمًا سياسيةً وحقوقيةً وأخلاقيةً إنسانيةً مواقفَ إيجابيةً ومنصفةً من الكرد وقضيتهم. وهذا ما يجعلنا نعتقد بأنَّه بقدْر ما تحمي هذه النخبُ الثقافيةُ قيمَها المعرفيةَ من طغيان السياسات بأطرها التقليدية السابقة، تتمكّن أيضًا من اتّخاذ مواقف تنسجم وقيمَها الإنسانيةَ؛ وبقدْر ما تُخضِع هذه النخبُ معارفَها الثقافيةَ لطغيان تلك السياسات وترتهن لها، تَفْقد مصداقيتَها وتعجز عن اتّخاذ المواقف الإنسانية والأخلاقية المطلوبةِ منها.

وبعيدًا عن الجدال الدائر بين فئات من المثقفين العرب عمّا إذا كانت العروبةُ والوحدةُ العربية مجردَ فكرتيْن ولّى زمانُهما وماتتا، أو أنّ العروبة هويةُ أمة وأنّ الوحدة العربية عمليةٌ تاريخيةٌ لا بدّ أن تتمّ، نتساءل: هل يَصْلح أن يتحول الانتماءُ الإثني لقبائل عربية سكنتْ شبهَ الجزيرة العربية، وهاجَرَ بعضُها قبل الدعوة الإسلامية، وتوسّعتْ هجراتُها مع هذه الدعوة، إلى هوية إثنية (وأعني العروبة) لمكوِّنات إثنيةٍ وثقافيةٍ واجتماعيةٍ ودينيةٍ **مختلفة** سكنتْ، على مرّ التاريخ، في شمال أفريقيا ووادي النيل والشام وبلادِ الرافدين لمجرَّد أنَّ أغلبية هذه المكوِّنات استجابت للدعوة الدينية التي انطلقتْ من عمق الصحراء العربية؟

ماذا لو بقي العربُ يَحْكمون الأندلس؟ هل كان فقهاءُ الفكر الشوفيني سيُفْتُون بأنَّ الأسبان هم أحفادُ قحطان؟

إنّ العروبة بهذا المعنى تكفُّ عن كونها هويةً حضاريةً لأحد أقدم المكوِّنات الإثنية في المنطقة، لتغدو نزعةً قوميةً شديدةَ الغلوّ تُماثِل الطورانيةَ في سعيها إلى ابتلاع الهويات المغايرة وهضمِها.

إنّ تحميلَ مفهوم القومية هذه النزعاتِ الشوفينيةَ والذعرَ من الآخر القوميّ يعودان أساسًا إلى مسار التطور التاريخي والثقافي والاجتماعي في منطقة الشرق. فمفهوم القومية حديث نسبيًا، وهو من المفاهيم المعاصرة للثورات الاجتماعية والوطنية التي حدثتْ في الغرب، ولاسيّما الثورة الفرنسية. وقد تعرَّض هذا المفهومُ لعمليةِ عقلنةٍ من خلال ربطه ببناء الدولة ـ الأمة المستندةِ إلى أفكار فلسفة التنوير المتمحورة حول التعاقد الاجتماعي الحرّ بين الدولة والمجتمع (روسو)، ومبدإ فصل السلطات والتوازنِ بينها (مونتسكيو)، وحمايةِ حرية الرأي والتعبير (ڤولتير). ومن هنا رَكَّزَ الفكرُ القومي على مفهوم الوطنية، ومفهوم الأمَّة المقترنِ بالدولةِ الضامنةِ للقانون والحقوق. وما كانَ لهذا أن يتحقق لولا التناغم بين الحركة الفكرية المتمثّلة في فلسفة الأنوار، والتطور الاجتماعي المتمثل في ولادة القوى الاجتماعية الجديدة التي شكّلتْ حاملاً لهذا المشروع التنويري. على أنَّ هذه المسألة كانت مسألةً تراكميةً: فقد كان هناك عصرُ النهضة وأفكارُه، ومن ثم حركةُ الإصلاح الديني المتمثلة في اللوثرية وما أعقبها، وبعدها كانت فلسفةُ الأنوار، والمشروعُ القومي المعقلن. والآن تتم إعادةُ النظر في أساس الدولة ـ الأمة تلك، وتأخذ القيمُ المعاصرةُ (كحقوق الإنسان، وحقوقِ الأقليات والجماعات والأفراد المنتمين إلى المكوِّنات الاجتماعية الخاصة، والحرياتِ الفردية، والمساواةِ بين الجنسين) مجالاً أوسعَ من الاهتمام الدستوري والقانوني.

وأما في منطقتنا فلم يتحقق هذا التراكمُ بسبب البنية الضعيفة للمجتمعات وتخلُّفِها من جهة، وبسبب سطوة الاستبداد السلطوي من جهة ثانية. والمعلوم أنّ الاستبداد المذكور قاوم الأفكارَ المختلفة معه وحاربها، وقَطَّعَ أيادي الداعين إليها، وعَمَدَ إلى تسييد الثقافة السلطانية الممجِّدة للسلطة والمبرِّرة لاستبدادها، وثبَّت قاعدة «الطاعة لوليّ الأمر،» وحارب الفكرَ والفلسفةَ. يقول الباحث هادي العلوي في هذا الصدد: «إنَّ الفلسفة التي وَفَّرتْ معالجاتٍ حيويةً للسياسة على يد الإغريق لم توفِّر ما يماثلها على يد المسلمين. وبخلاف السياسات الإغريقية، فإنّ حيوية الفكرالسياسي في الإسلام تقع خارج الفلسفة.»[1] وربما هذا ما يفسِّر صعوبةَ نفاذ مفاهيم فلسفيةٍ

١ ـ هادي العلوي، **فصول من تاريخ الإسلام السياسي** (نيقوسيا: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٩٥)

الفكر العروبي الرسالي في علاقته بالآخر: الكرد نموذجاً

عريقةٍ جدًا إلى الوعي السياسي في منطقتنا حتى يومنا هذا، كمفهوم الديموقراطية وقيمها مثلاً

في غياب هذا التراكم ـ إذ لم يَظْهر عندنا على الصعيد الديني ما يماثل اللوثريةَ، ولا على الصعيد الفكري ما يماثل فلسفةَ الأنوار، ولا على الصعيد القومي ما يماثل البسماركيةَ ـ لم يَمْنع التوجُّسُ من المد السلفي الإسلامي، ولا التأثُّرُ بالفكر القومي الاشتراكي الذي مَثَّلَ خروجًا على الفكر القومي الأصيل في أوروبا، دعاةَ العروبة الأوائلَ من استجلاب الكثير من الإرث الميثولوجي والقداسي التقليدي وإلباسِه ثوبًا قوميًا. كما لم يمنعهم من طرح فكر رسالي متمِّم بالخلود، أقربَ إلى اليوتوبيا منه إلى الأفكار القومية المعاصرة التي أَوْلَتْ مسألةَ الدولة وعلاقتِها المتوازنةِ بالمجتمع الأهميةَ الأولى. في حين فَشل حَمَلَةُ المشروع القومي العربي في تجاوز مفاعيل التقسيم الاستعماري، وبناءِ الدولة ـ الأمة، وانقسموا على ولاءات لسلطات يَنْعتونها بالقُطْرية...

أمام عجز دعاة الوحدة عن تجاوز مفاعيل التجزئة الاستعمارية، معطوفًا عليه تزايدُ وطأة مفاعيل تدخُّل الخارج النازع إلى الهيمنة على الداخل الهشّ، غدت أيةُ دعوة إلى التمايز والتمسك بالخصوصية «إسهامًا إضافيًا» في مسار التجزئة، و«تآمرًا» على وحدة الأمة وكيانها، و«تواطؤًا» مع ذلك الخارج على مزيد من التفتيت. وهكذا يغدو رفضُ التذوّب ورفضُ القبول بالهيمنة تآمرًا وتهديدًا... بمنطق هذه الذهنية المتقوقعة والمقفلة طبعًا.

وأحيانًا يَدفع هذا الفكرُ الرسالي بالغلوّ العروبي إلى حد الهذيان، لدرجةٍ تعتمد «الفتوى» التاريخية على الميتافيزيقا. وهكذا يؤرِّخ د. أحمد داوود لنشوء البشرية بخلق آدم في مغارة في جبل السراة في شبه الجزيرة العربية، ويُنطقه باللغة العربية،[1] لتنتشر البشريةُ من هناك. وبذلك يكون جميعُ البَشر عربًا في جذورهم! وإذّاك لا نندهش حين يقول د. داوود: «إنّ الأكراد عرب من أبناء مُضَر وربيعة،» وإنّ «الأكراد أشتاتٌ من القبائل العربية الرعوية ابتعدتْ عن المركز.. »[2]

وهذا الغلوّ هو ذاتُه الذي يدفع بالكاتب منير شفيق لأن يقول «إنّ وجود شعوب عربية تَحْمل هويةً وانتسابًا عربيَيْن يمثِّل واقعًا موضوعيًا لا يَسْمح لمُنْكره أن ينفي انتسابَه العربي، حتى لو تقزَّز منه وتعالى عليه. كذلك شأنُ مَنْ يشدِّد على هويات أخرى، كالإسلامية أو المسيحية أو القطرية. فالمرء يكون عربيًا مسلمًا، وعربيًا مسيحيًا، وعربيًا ليبيًا، أو مصريًا، وحتى كرديًا وأمازيغيًا إذا شاء.»[3]

نعم، بإمكان العربي، كما الكردي والأمازيغي، أن يكون مسلمًا أو مسيحيًا أو حتى ملحدًا، مثلما يمكنه أن يكون مصريًا أو سوريًا أو جزائريًا. فهذه الانتماءات العقيدية والوطنية يمكنها أن تتجاوز البعدَ العرقي الضيقَ الذي يريد السيد شفيق حَصْرَنا فيه عنوةً تحت طائلة اتهامنا بالتنكر «لانتسابنا العربي» والتقزز منه، وذلك في عمليةِ خلطٍ خاطئةٍ بين هويتين: الهوية الوطنية التي تتحدَّد بعلاقة المواطنة القائمة على ثنائية الحقوق والواجبات، والهوية الخاصة بشعوبٍ لها جذورُها الثقافيةُ والحضاريةُ. والحقّ أنّ بإمكان السيد شفيق أن يكون فلسطينيًا وبريطانيًا وأن يتمسك بقوميته العربية، دون أن يتَّهمه الإنكليزُ بالتنكر لإنكليزيته.

وانطلاقًا من الخلفية الشوفينية نفسها، ماثل رئيسُ «اتحاد الكتاب العرب» د. علي عقلة عرسان، وفي إجحافٍ شنيعٍ بحق الكرد، بين اقتراح وزير الخارجية البريطاني الأسبق جون ميجور بتأمين ملاذٍ آمنٍ لثلاثة ملايين كردي شَرَّدهم البطشُ الصدّامي، ووعدِ بلفور لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين![4]

١ ـ د. أحمد داوود **تاريخ سوريا الحضاري القديم ـ المركز** (دار المستقبل للنشر، ١٩٩٤)

٢ ـ لمزيد من الاطلاع على أطروحات الدكتور داوود ومغالطاته بشأن الكرد، يمكن الرجوع إلى التعليق الذي كتبه د. روزاد علي على الكتاب السابق الذكر ونُشِرَ على شكل كرّاس عام ١٩٩٨

٣ ـ منير شفيق، «في موضوع القومية والوحدة العربيتين،» جريدة **الحياة**، ٢٠٠٣/١٠/١٢

٤ ـ علي عقلة عرسان، «من بلفور إلى ميجور،» صحيفة **الأسبوع الأدبي** (دمشق)، ١٩٩١/٥/٢

فلاّحون من رانيه

ويحتجّ كاتب عربي، يدعو إلى وطنٍ واحدٍ للعرب والكرد معًا، على عودة الكرد المرحَّلين والمهجَّرين قسرًا إلى ديارهم، ويصفها بأنّها طردٌ للعرب وانتقامٌ منهم. فالأستاذ صقر أبو فخر يُبدي «خشيتَه» أن يقع الأكرادُ في ما وقع فيه نظام صدّام حسين. ثم يَسْتبلهنا بحشر تساؤل على لسان «كثيرين»: «ما الفرق، إذن، بين الديكتاتورية الصدّامية والصهيونية والعنصرية الكردية؟» مستطردًا بأنّ حق عودة الأكراد إلى ديارهم التي طُردوا منها يجب ألاّ يعني «طردَ» العرب من الأمكنة التي يقطنون فيها. . مهما تكن الأسباب.[1]

إنّ السؤال الذي كان ينبغي أن يطرحه السيد أبو فخر منذ زمن التهجير والترحيل والتجميع القسري للكرد في معسكرات مغلقة هو «ما الفرق بين هذا التهجير القسري للكرد، والتهجير القسري الذي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين؟» وأما السؤال الذي نوجِّهه نحن إليه فهو. «هل حقُّ عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم يجب ألاّ يعني 'طردَ ' المستوطنين من الأمكنة التي يقطنون فيها... ومهما كانت الأسباب؟'»

الواقع أنّ الكرد لم يقابِلوا ـ ويجب ألاّ يقابِلوا ـ هذا الغلوَّ القوموي، الناكِرَ عليهم هويتَهم الخاصةَ، بفكر قومي وخطابٍ مماثلَيْن له فليس بين الأكراد مَنْ يقول بأنّ العرب أو غيرَهم من القوميات أكرادٌ هبطوا من أعالي جبالهم أو نَزَحوا عن سهولهم ليبتعدوا عن المركز وليَتُوهوا في عمق الصحراء ويَنْسوا لغتَهم الكردية!

ثم إنّ الكرد في جنوب كردستان (شمال العراق)، وفي أول فرصة سنحتْ لهم ليسنّوا القوانينَ في وطنهم، مَيَّزوا في تشريعهم بين ما هو «**كردي**» كتعبير عن الانتماء الاثني ـ القومي وما هو «**كردستاني**» كتعبير يَشْمل كلَّ مواطني كردستان بغضّ النظر عن أصولهم القومية،[2] وذلك احترامًا للتنوّع الإثني والديني والثقافي لمواطني الإقليم الكردستاني كما أنّ النخب الكردية تفاعلتْ بإيجابية مع المواقف الإيجابية التي تبديها نخبٌ عربيةٌ تنتمي إلى تيارات مختلفة، كذلك الموقف الذي يبديه الكاتبُ التونسي د. تهامي العبدولي حينما يقول «لا يمكن أن نتجاوز الحقَّ التاريخي للأكراد إلا بمنطق المرجعيات الإيديولوجية، التي إمّا أن تكون مرجعياتٍ إسلامية، أو مرجعياتٍ قوميةً شوفينية »[3] أو كذلك الموقف الذي عبّر عنه المفكّر العراقي د. عبد الحسين شعبان بقوله: «ثمة نقص في إسلاميتي، وثمة نقص في عروبتي وقوميتي، وثمة نقص في مواطنيتي وجنسيتي، وفي معاييري الإنسانية وأفكاري، إنْ لم أقرّ وأعترفْ علنًا وأدافعْ بكلّ ما أستطيع عن حقوق الشعب الكردي في تقرير مصيره.»

مثلُ هذيْن الرأيْن الأخيريْن عبارةٌ عن نماذج من تحرير الهوية من جذورها العرقية المدَّعيةِ النقاءَ، لصالح البعد الإنساني والحضاري الذي يركّز على المشتركات الإنسانية الضامنة لإمكانية التعايش والتفاعل والانتفاع المتبادل مع الاحتفاظ بخصوصياتنا وتنوعنا. فالحال أنّ الرسالة الإنسانية لا تُناط بأمةٍ لوحدها، وإنّما بالاشتراك الإنساني المتسامي على التمييز والتعصب والحقد على الآخرين. والحقّ أنّ الاستماتة في الدفاع عن فكرةٍ ما قد تُنذر أحيانًا بمشارفة الفكرة ذاتها على الموت... علمًا أنّنا هنا نتحدث عن الأفكار لا الهويات

حسين عمر

كاتب كردي ومترجم

١ ـ صقر أبو فخر، «في سبيل وطن واحد للعرب والكرد معًا،» مجلة **الحوار**، العدد ٤، ٣ ٢ تعليق مُعِدّ الملفّ (ف ح م) الكاتب صقر أبو فخر لم يحتجّ إطلاقًا على عودة الأكراد إلى أملاكهم وبيوتهم في كركوك، بل يعتبر هذا الأمر حقًا من حقوقهم لكنّه يحتجّ على طرد العرب من هذه المدينة ومن غيرها، وهو يدعو إلى حلّ إنساني لهذه المشكلة في إطار وطن واحد للعرب والكرد معًا

٢ ـ جوزيف ياكوب، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩

٣ ـ د تهامي العبدولي، في حوار مع سالار أوسي، في كتابه **الكرد في الوعي الثقافي العربي** (دار أبعاد للطباعة والنشر)، ص ٢